قصة قصيرة

البحث عن مكان للجثة

حكم بلعاوي

أعاد سمّاعة الهاتف مكانها، ثم استدار قليلا، وزفر ملء فمه، وبقيت عيناه ساهمتين، وغارقتين في الصمت الذي لف المكان، حتى انه لم يتمكن من الحديث عندما سألته زوجته من مات؟.. فانسحبت من جواره حين لم تجد جواباً، مشيرة في تلك اللحظة إلى أطفالها ان يلحقوا بها، وكأنها أرادت ان يعيش حزنة للحظه، الى أن يهدأ قليلا فتعود إليه.. وفيما بعد أخذ يخطو خطوات قصيرة وجنائزية، وهو يجتر المكالمة..

- سالم عوض مات.

- مات؟.. متى؟.. وكيف؟

- لا أعلم بالضبط، واخبروني ان ذلك حدث أمس، ولكني اعتقد أن الوفاة حدثت منذ ثلاثة أيام، وعلمت ذلك بطريق الصدفة، فذهبت الى مكان الجثة، لقد صرخت قهراً، وبكيت لحظات على سالم ومن القهر أيضاً.

- من الأفضل أن توضع الجثة في ثلاجة المستشفى حتى نتدبر الامر.

- حاولت ذلك سلفاً ولكن الموافقة تحتاج الى اتصالاتك..

- ولماذا؟

- هكذا قالوا، أخبروني من جهة انه لا يوجد اتساع، ومن جهة أخرى ان القوانين لا تسمح.

وانقطع عن اجترار ما تبقى من المكالمة، والتمع في عينه بريق راعب، وأخذ يدير قرص الهاتف، ويشيع خبر وفاة سالم عوض، حتى اطمأن الى أن الجثة وضعت في ثلاجة المستشفى، وان كل رفاقه قد أحاطوا بها فترة قصيرة، فاستراحت خواطره، وغاص مرة أخرى يعاود اجترار المكالمة الهاتفية، فيقوى على الصمت وهو يتذكر كيف رجا رفيقه ان يسيطر على الحزن، وعلى القهر، .. لكنه في الحقيقة كان يهز رأسه غير مقتنع وليس في مقدوره ان يحول دون هذه الأحزان التي امتدت منذ سنوات عديدة، وربطت الذاكرة بين ثلاجة المستشفى التي تضم جثة سالم عوض وبين قريته البعيدة جداً، والتي كان يتمنى ان يعود اليها،.. يدور في حواكيرها، حيث يتميز طعم ثمارها عن كل الثمار التي لم تعجبه منذ أن غادرها، ويتجول في أزقتها التي تخترق تلك البيوت المتساندة كتفاً الى كتف، ويتزوج عروس أحلامه، يمتطي أحد خيول قريته التي تساهم في حراثة الأرض، يوزع فرحه على وجوه النسوة والرجال، وهم يزفونه، ويرقصون له، وتتفنن تلك المرأة التي عرفتها اعراس القرية كلها..، أم سعد، التي كان يحكي عنها دائماً، عن وفائها، وطيبة قلبها، وزغاريدها التي تلعلع في سماء القرية، ومهارتها في طبيخ الأعراس، وحب الناس لها،.. وبعد ذلك كله يتمنى أن يموت في قريته، يسير خلف جنازته الجميع، ويدفنونه في المقبرة التي تقع على إحدى روابي القرية، تكسوها اشجار شامخة معمرة، وارفة الظلال ودائمة الخضرة.

لقد سمع منه ذلك الكثير من المرات، وأخذ يتذكر حكاياته واحدة تلو الأخرى، يتخيله في تلك اللحظة الكئيبة قد قطع المسافات عبر أسلاك الهاتف واقفاً أمامه، بقوامه الطويل، وشعره الكث الذي اختلط بالشيب، وجبهته العريضة تظللها مأساة ملبدة، وصدره العريض، وابتسامته التي تقفز على شفتيه بمقدار ما يحتاجها للتعبير عن رأيه عند الحاجة إليها، ... وعادته المألوفة التي يتحدث عنها كل من يعرفه في المشي باستمرار، من البيت الى العمل ومن ثم في معظم أوقاته عبر الشوارع كأنه يفتش عن شيء مفقود، وحيداً في غالب الأحيان الى حد الإنزواء، ورغم ذلك يمتاز بتلك الوداعة، ولم يعرف عنه طيلة السنوات التي قضاها بأنه أساء الى أحد، وهو من ذلك الطراز الذي يذوب وهو يفتش عن الحياة، دؤوبا في عمله منذ أن تخرج من الجامعة والتحق استاذاً في إحدى المدارس الثانوية، يعشق طلابه اخلاصه وجديته، ويذكرون عنه ان لم يكن يحدثهم في أوقات فراغه الاّ عن أرضه التي احتلت، وعن قريته تلك التي وصف لهم كل معالمها، حتى أصبحت عشقهم مثلما هي بالنسبة له، حتى حكاية عزوبيته التي عرف الجميع سببها المقرون بالعودة الى

قريته، ويتخيله يرفض الثلاجة التي احتوت جثته، يسجد أمامها وقد تحولت الى هرم شاهق، ويحاول أن يتخلص من رعشة دبت في أوصاله، كل ذلك وأكثر، أخذ يتزاحم أمامه، ويتراكم، وتتلاحق الصور ما بين الثلاجة وسماعة الهاتف، والمكالمة التي يجترها فيلتصق بالجدار كأنه قطعة باردة مثله، يسترجع في غمرة الحزن سؤال رفيقة له عن المكان المناسب لنقل جثته إليه.. يهاجمه السؤال، يزداد حسرة، ويحس بالضعف الكامل أمام أمنيات سالم عوض، ويتذكر أمنيته الأفضل بالعودة الى قريته، ويهزأ من نفسه وهو يتساءل في داخله ان كان يكفي للروح ان تهيم حتى تصل الأرض التي ينتمي إليها هو أو سالم عوض، ويشرد بأفكاره حتى يكاد القيء يندلق من فمه، ويلعن هذه الفلسفة، ويدوي في أعماقه صوت يلعن مرة أخرى هذه الفلسفة التي لا تعني شيئاً بالنسبة للجثة التي احتوتها الثلاجة، وكلما يعلو الصوت تهزه رجفة يندمج معها ويبصر الكلمات أمامه واقفة مثل المسامير الحادة.. يقرأها واحدة بعد الأخرى سالم عوض ليس جثة، وروحه ترفض أن تهيم حتى تصل قريته بدون جسده الحي، بدون خطواته المتحركة، وصدره العريض، وكل ملامحه التي تنبض بالحياة، ويحكي عن كل الأشياء المختزنة في جوانحه، ولا يحمل على الأكتاف هكذا دفعة واحدة بعد مكالمة هاتفية، تعلن أنه مات.. كيف؟.. لا أدري.. ومتى؟.. لا أدري تماما، وماذا بعد؟.. يحتاج الأمر الى موافقة لوضع الجثة في ثلاجة... وماذا أيضاً... سؤال عن المكان المناسب لنقل الجثة إليه؟.. ولا يستطيع ان يسترسل، بل يكاد يسقط تحت وطأة الصوت الذي يدوي في أعماقه، وصور الكلمات الشبيهة بالمسامير الحادة تلاحق نظراته، ينتفض بقوة وسط انهيار العرق الذي أخذ يسقط من جبهته الى خده.. وذقنه حتى يسيل على عنقه المنفوخ.. الى أن داهمه هدوء، تنفس طويلا، واتسعت عيناه، بلا حدود، لامعتين، وكأنها بريق وعد لجثة سالم عوض، يقترن بوفاء، وخواطر أخرى عديدة تموج في صدره.. تدفعه ان يطمئن الى اليقظة التي تلازمه، تصل ما بين ذكريات الأمس البعيدة، وهذا الحنين المتواصل اليها، يزداد تدفقاً وهو يقاوم مرور الزمن، وتسمح له تلك اللحظة ان يتذكر سالم عوض في البيت الذي يعيش فيه، والبعيد جداً عن قريته.. كان بيتاً متواضعاً جداً، ورغم السنوات العشرين التي قضاها في جنباته، فإن كل الأشياء فيه توحي بأن صاحبه على وشك الرحيل، وليس هناك من شيء واحد يدل على الرغبة في الاستقرار، تغطي جدرانه بداية من المدخل تلك الصور واللوحات لمدن وقرى أرضه المحتلة، عديدة ومتنوعة وقديمة جداً، وتوثق الناظر إليها، بجبال من الذكريات، وسرعان ما تغرقه في بحر من الأحلام والغضب في آن واحد، وتنقله من ثم الى مزيج من تساؤلات تكاد في نفس الوقت لا تفارق عينيه الغائرتين في وجه عريض ملبد بالكآبة، وأيضاً بالثقة التي توحي بها ابتسامات ساخرة تتعلق على شفتيه، وهو يؤشر على هذه اللوحة أو تلك، أو يسرد قصصاً عنها، أو تقع العين على عناوين الكتب المتناثرة ما أمكن في جوانب المكان، كلها تتعلق بالحالة التي يمثلها بداية من لحظة الرحيل، والى رفضه ورغبته في بلوغ العودة الى قريته.. وعندما يصل الى بندقية صيد معلقة في إحدى الزوايا، يساهم في كثير من الانشراح في الحديث عن هوايته للصيد التي ورثها عن والده يتذكره تماما، كان يخرج الى الجبال المحيطة بقريته، تكسوها تلك الاحراش الكثيفة وعند عودته مثقلا بغنائمه من الصيد كان يعم الفرح بيته وبيوت الجيران.. ولا ينسى أن يتوقف أمام مفتاح بني اللون، قديم الصنع، معلق على أحد الجدران، يشير اليه وهو يتمتم بأن لهذا المفتاح قصة طويلة، يختصر الحديث عنه بنبرة من الأسى بأنه مفتاح بيته في قريته البعيدة عنه الآن، وقد احتفظ به بعد أن ماتت والدته في ليلة باردة معتمة، ومن بعد هذا كله، سرعان ما يغرق في حديث متواصل، يكرر دون أن يحس بذلك، بل ان حرارة الكلمات، تحول الجلسة الى معركة تذيب الملل والحسرات، ويطفح وجهه بمزيد من القوة، تمحو لبعض الوقت ملامح الكآبة، التي لازمته طويلا، لكنها بقيت دون مشاعره، يعزي نفسه بها، ويوحي بأن الموت قد يقوى على جسده، ولكنه لن يستطيع ان ينال منها... وإذا ما فرغ من حديثه، ومن حركاته، تبقى تلك المشاعر رفيقة الخطوات التي تغادر بيته المتواضع، وهي نفسها الآن تحوم حول جسده في ثلاجة المستشفى، قوية كما كان يصفها دائماً، وتتحول الى صرخة عميقة تكاد تمزق أسلاك الهاتف، الذي نقل اليه خبر موته تدوي في أعماقه بلا انقطاع، ويشعر وهو واقف كالمصلوب، يتذكره ويتذكر كل أشيائه وأمنياته، بأن الصرخة تتجاوزه، فتملأ الأمكنة وتبعث فيه الرغبة ان يحيلها الى قبر يليق بالجثة.. وفي الوقت نفسه كانت اصداء رخيمة تخترق حناياه باتجاه المدى الواسع، يتصوره مفروشاً بموكب يكاد يضيق به، تعلوه جثة سالم عوض ملفوفة بعلم بلاده، ويتصل آخر الموكب بمقبرة الشهداء، وهما تزوغان عن ثلاجة المستشفى، ويتجهان نحو موكب الجثة، وقد ارتسمت تلك الصورة امامه كبيرة جدا، تحيط بها مشاعره التي تأبى أن تموت، وتحوم بين أهله الذين لا يعرف مكانهم تماما، ولكنها تعانق خطواتهم باتجاه قريته، وتنبت على طول الطريق أفراحاً طالما كان يعشقها سالم عوض، يأنس بها وسط أكاليل من الزهور، تتغذى بكل المشاعر المتوهجة، فتبقى دائماً ندية، وجميلة مثل أعراس القرية.

تونس